حاجة الفكر العربي
الإسلامي إلى حداثة أصيلة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بحث سبق نشره باللغات الثلاثة في مجلة «الإسلام اليوم» التي تصدرها المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم» –الإيسيسكو– (الإسلام اليوم) العدد الرابع والثلاثون – السنة الثالثة والثلاثون – 1438 هـ – 2017م

والقصد من إعادة نشره في هذه الكراسة هو تسهيل تداوله بين القراء المهتمين بموضوعه.

وعلى الله قصد السبيل

عباس الجراري

الرباط في 29 شوال 1438 هـ

الموافق 24 يوليوز 2017

عنوان الكتاب : حاجة الفكر العربي الإسلامي إلى حداثة أصيلة

المؤلف: عباس الجراري

رقم الإيداع القانوني : 3229 MO 2017

ردمك: 978-9981-893-49-8

الطبعة الأولى : 1438 هـ – 2017م

مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع – الرباط

عباس الجراري

حاجة الفكر العربي الإسلامي إلى حداثة أصيلة

منشورات النادي الجراري

- 74 -

حاجة الفكر العربي الإسلامي إلى حداثة أصيلة[1]

إن الإنسان بطبيعة تكوينه ووجوده، وبما له من وعي بذاته وشعور بمسؤوليته في مجتمعه الصغير والكبير، يسعى باستمرار لتطوير نفسه وتجديد حياته، وفق ما يتيح له عصره وإمكاناته، وفي نطاق ما تقتضيه شروط التقدم التي لا تتنافى مع الفطرة ومتطلباتها البشرية الضرورية، ولا سيما مع الإيمان بالخالق، وفي إطار ما يحفظ للفرد حريته وكرامته، وكذا للجماعة قريبة منه كانت أو بعيدة.

وهو لكي يحقق ذلك، يحتاج إلى فكر معاصر، وعمل دائب في البحث عما يفرضه هذا الفكر على مختلف المستويات وجميع الواجهات، سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، بما تتضمنه هذه الواجهة الأخيرة من فكر وأدب وفن، وما تستوجب كلها من إبداع.

1. عرض قُدم في الدورة الرابعة والأربعين لأكاديمية المملكة المغربية التي عقدت أيام 26-24 من يناير 2017 م، في موضـــوع: «من الحداثة إلى الحداثات».

وحتى يتسنى لهذا الإنسان أن يعيش عصره ويتصرف في التعامل معه على النحو الإيجابي، أي على نحو ما يحقق له ما يصبو إليه من تقدم ورقي وازدهار، فإنه ملزم بأن يعتمد على الصحيح من ماضيه، وأن ينفض الغبار عن البالي منه والفاسد ؛ مما يمكنه ليس فقط من إدراك ما يتطلع إليه، ولكن كذلك من الانفتاح على العالم وما فيه من جديد، وما يحدث فيه من تغيير وما يستطيع أن يغنيه به.

وليس المقصود بالجديد ما يزخر به هذا العالم من ابتكارات مادية واختراعات تكنولوجية، مما غالباً ما يكون ميسراً للاستهلاك وفي المتناول اليومي لعموم الناس، ولكن المقصود بالدرجة الأولى، هو ما يتصل بالعنصر الثقافي، بما يقتضي من مواقف نحو مكونات الذات، وخاصة ما يتعلق بالتاريخ والعادات والتقاليد وكل ما يشكل التراث أو له ارتباط به.

وهو ما يستدعي مراجعة هذه الذات وما يُكونها ويتحكم فيها من وعي وذهنية، مع اعتبار مدى استعدادها للتحرر من السلبيات والشوائب التي راكمها ذلك التراث، وكذا التحرر مما يكبل المالك له في علاقته بالآخر الذي يتفوق عليه، ويهيمن بنمط ثقافته وسلوكه .ويزيد فيوهمه

بعالمية هذا النمط وإنسانيته، ويدفع بغير قليل من مفكريه إلى الانشغال به وصرف جهود عديدة في محاولة فهمه وحل إشكالاته بقصد مواكبته. وكان الأجدى والأجدر بهم أن يبذلوا هذه الجهود ويركزوها على البحث في قضاياهم التراثية التي يتركون للآخرين ـ وهم في الغالب خصوم ـ أن يهتموا بها بغرض التشويش والتشويه والاستفزاز والإثارة، وربما بهدف التخويف والتهديد.

من خلال هذه الرؤية ننظر إلى الحداثة الغربية(Modernité) والمواقف المتخذة إزاءها وإزاء ما بعدها، وإلى إمكان إيجاد حداثة أخرى تكون البديل الذي يخرج الفكر العربي الإسلامي من الحيرة التي تستبد به والاضطراب الذي يعانيه، ولا سيما بعد أن لم يوفق في حل إشكالية الأصالة والمعاصرة التي قضى في مناقشتها زمناً غير يسير.

حين نتأمل مدلول الحداثة الغربية ـ وقد تطلق عليها مصطلحات أخرى كالعصرنة ـ نجد أنه ارتبط بالتحديث (Modernisation)الهادف إلى التنوير والتجديد والنهوض الفكري، في سياق ما كان ملائماً لمرحلة ظهورها، وهي تتحرر من التخلف الذي حملته القرون الوسطى، بدءاً من

سلطان الكنيسة وطغيان الإقطاع، إلى كل مظاهر التأخر التي طبعت هذه القرون.

ولعلها نشأت أول الأمر في بدايات القرن السادس عشر مع ظهور الكنيسة البروتستانية والثورات التي قامت في موازاتها، فلسفية وصناعية وسياسية، مواكبة بوادر النهضة الغربية، مما برزت معه على امتداد هذه الفترة، أسماء مثل كوبرنيك(Nicolas Copernic 1473-1543) ، ولوثر (Martin Luther 1483-1546)،وبيكـــون (Francis Bacon 1561-1626)، وكَـــاليلي (Galilei 1564-1642)، وديكـــارت(René Des-cartes 1596- 1650)، ونيوتن(Isaac NeWton 1642- 1727)، وفرويد (Sigmund Freud 1856-1939)، وآخرين. ثم لم تلبث أن تعززت ببعض الاتجاهات كالوجودية والماركسية .وقد تكون نشأت قبل ذلك بزمن طويل مع ظهور المطبعة على يد كَوتنبرغ(Johannes Gutenberg 1397-1468) بل إن من الدارسين من يؤرخ لها بمنتصف القرن التاسع في فرنسا على يد الشاعر بودلير (Charles Baudelaire 1821-1867)، انطلاقاً من الاتجاه الرومانسي الذي سرعان ما شمل مجالات

حضارية وثقافية متعددة، مع الإشارة إلى أن مصطلحها لم يستعمل إلا في أوائل القرن العشرين، مرتبطاً ببعض الأشكال الأدبية والفنية.

وإذا كانت هذه الحداثة قد ظهرت ملائمةً للبيئة الأوروبية، فإنها كذلك تزامنت مع المدّ الرأسمالي والمحاولات الاستعمارية الأولى، ومع ما عرفه العرب والمسلمون من انهيار، بدءاً من سقوط الأندلس، إلى القضاء على الدولة العثمانية.

وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف مفهوم هذه الحداثة، مع ما يستدعي من استفسارات وإثارات نقدية، فإنها تبقى حركةً أو نظريةً أو مذهباً أو منهجاً يقوم على رؤية فلسفية تعتمد الثورة على الماضي، بتاريخه وبما فيه من مقدسات دينية ومسلمات عقدية وقيم أخلاقية ومنجزات تراثية، وكل ما هو موروث ثابت، وكذا الثورة على الحاضر بسياسته واقتصاده وثقافته، مع الدعوة إلى إطلاق حرية التفكير والتعبير، بقصد مراجعة المنظور المتداول للإنسان والطبيعة، والسعي إلى السيطـــرة عليهمـــا وعقلنة(Rationalisation) كل ذلك.

وهي انتقادات جعلت الحداثة تتعرض– حتى عند الغربيين أنفسهم– لمواقف متباينة، منها ما هو مؤيد وما هو رافض .وتكفي الإشارة إلى أن هذه

الحداثة لم تلبث أن أعقبتها حركة« ما بعد الحداثة(Postmodernisme)» التي غدت تطوراً لها، وإن كانت في الحقيقة ناقضة لها ورافضة، إذ عكست معظم الانتقادات التي وجهت لها وما فجرت أو نتج عنها من أزمات وحروب .وهي بذلك تحاول تصحيح بعض وجهات النظر، أو تكميل ما رأته ناقصاً فيها، مع إعطاء أهمية كبرى للنقد. ثم إنها تجاوزت موقف الحداثة من الدين إلى الدعوة لإلغائه، داعية إلى استبعاد الحق المطلق واعتباره غير موجود، وداعية كذلك إلى النسبية في كل شيء.

وهكذا تبدو هذه الحركة البَعدية وقد نقضت جل المقولات التي نادت بها الحداثة، منذرة بما قد يُوصل إلى اللانظام، أي إلى الفوضى والعدمية .وهي مع ذلك تزعم دعوة الغرب إلى الاقتراب من الآخرين والانفتاح عليهم، مع أنها لم تفض إلى غير المزيد من العداء والصراع.

وإننا حين نتأمل الحداثة من منظور عربي إسلامي، وبموضوعية كذلك، نجد أنها قد ارتكبت أخطاء حين ضيّقت رؤيتها للعالم، من خلال منظور له عبر البيئة الأوروبية وما أنتجت من حضارة وثقافة، متجاهلة أو منكرة ما عرفته وتعرفه بيئات أخرى، وخاصة ما كان للعرب والمسلمين من تقدم حضاري وثقافي كان من أهم الأسس التي ارتكزت عليها نهضة الغرب الحديثة.

ثم إننا نجدها قد نظرت إلى التقدم والرقي من زاوية مادية ساندتها بعضُ الأفكار الفلسفية التي لم تعن بالإنسان، من حيث تكوينه وطبيعة وجوده وحاجاته وتطلعاته، وبرؤية شمولية تبتعد عن الفردية التي أصبحت طاغية عليه، فكان أن فككت علاقاته وأزالت ما كان بينها من حميمية، في زجٍّ به في خط مخالف لمستلزماته في حاضره ومستقبله، وسعي لشدّ الشعوب التي كانت مستعمرة إلى النمط الفكري والسلوكي الموروث من الاستعمار.

هذا بالإضافة إلى طابع العلمانية (Sécularisation) الذي اعتمدته على حساب الجوانب القيمية والروحية، داعية إلى ضرورة التخلص من الدين، باعتباره مجرد وهم، بل آفة مرتبطة بمرحلة التخلف البدائية. وهي إلى جانب ذلك، تركز على الطعن في اللغة والمقدسات، بدءاً من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وما يرتبط به من سيرة، وكذا الطعن في التشريعات الإسلامية وأحكامها وما توسلت به من مناهج وضوابط ومعايير.

وهو ما أفضى بطبيعته، إلى نتائج عكسية كانت خلف ظهور الصحوة الدينية التي انطلقت منذ منتصف القرن الماضي(العشرين)، والتي كان

الظن أنها الخلاص من كل ما أصاب الأمة، وأنها بذلك تُعَدّ الإعلام بانتهاء عهد الحداثة الغربية، ليس فقط بالنسبة للإسلام، ولكن حتى بالنسبة للديانات السماوية الأخرى ؛ مما عبرت عنه حركات وأنشطة وكتابات وغيرها، مما عرفه ويعرفه واقع معظم المجتمعات المتدينة ولا سيما الإسلامية.

ولأسباب ليس هذا البحث مجال ذكرها، نتجت عن هذا الوضع ظاهرة التطرف والعنف والإرهاب، مما أدى إلى حروب مهلكة تعاني اليوم ويلاتها شعوب البلدان العربية والإسلامية وغيرها من الشعوب المستضعفة، وتعانيها كذلك الدول الكبرى المتقدمة، سواء أكانت واعية بذلك، أم غير واعية به وهي نشوى بتدمير الآخرين.

وعلى الرغم من كل هذه المآخذ والانتقادات التي واجه الغربيون أنفسُهم بها هذه الحداثة، فإننا حين ننظر اليوم إلى واقع الفكر العربي الإسلامي ونتأمل موقفه منها، فإننا نلاحظ اتجاهات مختلفة يمكن حصرها في الآتي:

أولاً : الارتماء في أحضانها بإيجابياتها وسلبياتها، مع الإلحاح على التنكر للمقدسات وللماضي، والدعوة إلى التخلي عنه ورفض ما يحمله من حضارة وثقافة.

ثانياً : رفضها جملةً وتفصيلاً لما تدعو إليه في فصل العلم عن الدين، والانسلاخ عن الذات ومكوناتها واختياراتها، وخاصة ما يغني هذه الذات من ثوابت ومقومات.

ثالثاً : الإيمان بها، مع النظر في إمكان ترميمها بإلغاء بعض سلبياتها، ومحاولة ترشيدها بأفكار فلسفية وأخلاقية لإضفاء الطابع الإنساني عليها.

رابعاً : تعويضها بحداثة تستند إلى الأصالة في مختلف مكوناتها، لكن بوعي عميق وفكر متطور ومناهج عقلية .وهو ما نقصد إليه في هذا البحث.

ومن الملاحظ أن بعض المبدعين والمفكرين العرب والمسلمين، الذين نظروا إلى الحداثة الغربية بكثير من الإعجاب والتقدير متأثرين بحركتها، كان مما ساعدهم على ذلك ظهور حركة الترجمة وبعض التوجّهات التنصيرية والمؤسسات الماسونية .وهم في سياق هذا التأثر، يبدون متطلعين إلى اقتباس هذه الحداثة وتبنيها، غير منتبهين إلى السلبيات التي لا يمكن للفكر العربي والإسلامي أن يتقبلها، ولا سيما ما يتعلق منها بالدين والقيم والتراث والتاريخ .ولعل أهم جانب جذبهم إليها ما يتصل بالأدب على العموم والشعر على الخصوص، مما ظهرت بداياته في منتصف القرن

العشرين على يد بعض الكتاب والشعراء والمفكرين في العراق والشام والمهجر، ثم في أقطار المغرب العربي بعد ذلك وإلى الآن .إلا أنهم في الغالب تعاملوا مع الحداثة وهم يقتبسونها كسلعة استهلاكية لم يدرسوها بجد، ولم يتعمقوا حقيقتها لإدراك ما فيها من إيجابيات وسلبيات. وعندنا أن شيوع مثل هذا التأثير، وخاصة بين الأجيال الصاعدة، كان ـ إلى جانب عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية عميقة ـ من بين الأسباب التي جعلت المجتمعات العربية والإسلامية تفقد قدراتها الذاتية وخصوصياتها المتميزة، وتنقاد بسرعة إلى الإحباط والانهيار.

وتأكيداً لما سبق، وقبل تناول بعض معطيات الحداثة الأصيلة التي يدعو إليها هذا البحث، لا بد لنا أن نشير إلى أن رفض السير في ركاب الحداثة الغربية نابع من اختلاف ظروف نشأتها في الغرب مع وضع العالم العربي والإسلامي وواقع مجتمعاته .وهو واقع ـ على ما فيه من اختلالات ـ يعكس ما لهذه المجتمعات من قيم ومقومات وثوابت تتصل بالدين واللغة والتراث والتقاليد، وما لها كذلك من تمسك واعتزاز بحريتها وكرامتها وحقوقها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وتطلعها

الطبعي والمشروع للتقدم والرقي والازدهار، وكذا لأداء رسالتها والقيام بالدور المنوط بها في العالم المعاصر.

يضاف إلى ذلك أن هذه الحداثة الغربية، إذا كانت إيجابية في جوانبها التنويرية والإبداعية، فإنها في جوانب أخرى وعلى يد بعض المتعاطين لها، ليست غير عبث بالعقل والعلم وحرية التفكير وإبعاد الناس عن إنسانيتهم. وهي بهذا تقودهم ليس فقط إلى الاغتراب، ولكن إلى الخراب والفناء، مما أخذ العالم العربي والإسلامي يعيش ويلاته المدمرة .وقد يصيب بآثاره التخريبية من يدعي القوة، إذا ما استمر في غروره وطغيانه وجبروته.

على أن الوصول إلى إيجاد حداثة أصيلة، قد يصادف عوائق كثيرة، منها:

أولاً : أننا لم ندرس تراثنا في أصوله ومرجعياته بعمق يجعلنا ندرك حقائقه ونصفّيه من السلبيات التي تشوبه وهي كثيرة، حتى يتسنى لنا إدراك هذه الحقائق، سواء على مستوى الفكر أو المنهج.

ثانياً : أننا لم نتمكن بعدُ من تعاملنا مع الدين ـ وهو هنا الإسلام ـ بما يجعلنا نواكب به العصر، من خلال تشريعات اجتهادية وخطاب متجدد ومضمون لهذا الخطاب وكيفية أدائه وتبليغه.

ثالثاً : ثم إننا رغم موقفنا المبدئي من الحداثة الغربية، فإننا لم نتعمقها في أبعادها العلمية والعقلية على النحو الصحيح، للكشف عن انحرافاتها وما تعرضت له من نقد، واكتفينا بالتقاط مظاهرها المادية وبعض ملامحها البراقة ؛ بل زدنا فنظرنا إليها باعتبارها منتوجاً أوروبياً في الأصل، دون مراعاة ما ينافسه، مما تقدمه حداثات أخرى، ولا سيما منها الأمريكية والأسيوية التي لا شك أنها أخذت تتفوق على ما قدمه الأوروبيون، والتي يمكن الاستفادة منها في إنشاء الحداثة الأصيلة التي نطمح إليها.

إن الفكر العربي الإسلامي الذي نسعى به إلى التحديث، يبدو اليوم في حاجة أكثر من أي وقت مضى، إلى مراجعة تبدأ من نقد الذات بجرأة وشجاعة ومعرفة صحيحة، ودون أي شعور بالنقص، حتى تتبين أسباب التأخر الذي يعانيه .ولا بد لهذه المراجعة أن تمس مختلف جوانب تلك المعرفة، وأن تخضع لمتطلبات البحث العلمي، مع استحضار مدى التوسّع الهائل الذي بلغته علوم العصر بمناهجها ومستجداتها في كل ميدان .وهو ما يستلزم عدم الاقتصار على ما هو متوارث ومتداول، مما يفرض إعادة قراءته والإضافة إليه حتى يلائم العصر، وقبل ذلك تصفيته من الشوائب التي علقت به على امتداد فترات الضعف والانحطاط.

ثم إن مثل هذه المراجعة لمختلف مجالات الفكر العربي الإسلامي، ينبغي أن تبدأ بتجديد الوعي بالحاجة إلى الاجتهاد الفقهي في القضايا الحقيقية التي يثيرها واقع المرحلة المعاصرة بتحدياته المتعددة والمتنوعة، بعيداً عما يفتعل من مشكلات هامشية لا تزيد عن كونها تركز التخلف وتبعث على الإحباط.

وذلكم ما يستلزم خطاباً جديداً –كما أشرنا من قبل – على أن يقوم به علماء الدين المؤهلون، بتعاون وتنسيق مع سائر العلماء والمفكرين والباحثين من مختلف التخصصات، الشاعرين بنبض مجتمعاتهم وما هي في حاجة إليه، ويكون ـ أي هذا الخطاب ـ قادراً بمعرفة وشجاعة، على إقناع مكونات المجتمع كافة، مما لن يتسنى إلا بما هو جامع ومشترك بين العرب والمسلمين، وبعيدٌ، تبعاً لذلك، عن كل طائفية أو مذهبية أو عرقية من شأنها أن تفرق وتشتت وتمزق وتنشر العداوة والبغضاء وتقود إلى الصراع والصدام.

ولعلنا أن نلح في البدء على القول بأن الدين الذي هو مرمى رئيسٌ لحداثة الغرب، يُعَدُّ بما يشكله من مفاهيم وتعاليم وتشريعات وقيم وممارسات ورؤى وتصورات، أمان الفرد وأمن المجتمع، فيشعر كل منهما ـ وهو ينتمي

إليه ـ بوجوده الخاص والعام، وبمكانته في هذا الوجود وما يتحمل فيه من رسالة .فهو بهذا حافظ للوجدان، وباعث للطمأنينة النفسية والعقلية، ومحقق للتوازن مع الذات ومع الكون وما يخفي هذا الكون من غوامض وغيبيات ومجردات يعجز العلم عن تجاوزها ما لم يتسلح بالإيمان. ولا يخفى أن الحاجة إلى هذا الإيمان غدت ملحة في المرحلة الراهنة التي بلغت المعرفة ومستجداتها أوجاً يكاد يهدد آدمية الإنسان، إذ يساعده ـ أي الإيمان ـ على مواجهة ماديات الحياة وأزماتها وما يتولد عنها من معاناة .وتتفاقم هذه الأزمات ـ كما هو الحال اليوم ـ حين يواجه الدين بمن ينكره أو يحاربه أو يثير حوله فتناً لا تلبث أن تبعث الحيرة والقلق في النفوس، بما فيها نفوس المؤمنين من مختلف الديانات .وقد تؤثر على العلاقات التي ينبغي أن تكون بين أصحاب هذه الديانات، في اعترافٍ أساسُه التسامح والاحترام والقدرة على التحاور وقبول الاختلاف.

وهذا على عكس ما يرى الداعون لحداثة الغرب وما بعدها، إذ يتهمون الدين بتخلف الشعوب المتمسكة به ـ كما ذكرنا سابقاً ـ في حين أن المصدر الرئيس لهذا التخلف، ليس في الدين أو التراث أو الثقافة، ولكنه في الدرجة الأولى، كامنٌ في الاختلالات السياسية والاقتصادية التي أنتجتها

أنظمة متحكمة في غالبيتها، وكذا في فشل هذه الأنظمة وعدم توفيقها في تطبيق الديموقراطية والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان على النمط الغربي، وما إليها، مما حاولت اقتباسه دون فهم لحقيقة مراميه، بل دون إرادة أو رغبة في هذا الفهم، فضلاً عن التطبيق.

ثم إن الدين هو الذي يجعل الإنسان على صلة بخالقه وخالق الكون والمتحكم فيه، يحبه ويمتثل له على النحو الذي يجعله يقوم بواجباته ويلتزم بأدائها، في طاعة لأوامره واجتناب لنواهيه، ويجعله بذلك في علاقة رفيعة مع خالقه .وهي علاقة تسمو به وتُعلمه باستمرار كيف يتعامل مع الله ومع نفسه ومع الناس بسلوك، إن لم يكن مثالياً، فهو مبنيٌ على قيم تشعره بضرورة الابتعاد عن المدنسات، والاقتراب من كل ما هو مقدس، مما يحقق لذات الإنسان ما يتطلع إليه من رفعة وعلو .ثم لا يلبث أن يشعر بأن ما يؤديه من عبادات هو ما يقربه إلى العالم اللامرئي الذي هو المقدس؛ بل تجعله وهو يقترب منه، يتصوره ويدرك بعض الأسرار والغوامض التي لا تفسير لها كالموت.

ولا شك مع هذا أن الدين هو الذي يشعر المنتمي إليه بحريته التي لا تحدّها إلا العبودية لله، فلا يطغى ولا يتجبر، بل يتسامح ويتعايش

ويحس بمن هو أضعف منه ويرأف به .وبذلك يتحقق له الملمح الإنساني الشمولي الذي لا يمكن أن يتحقق إلا بالدين، وليس بأية فلسفة أو أي نسق عقلي كيفما كان.

والحديث عن الدين يقود إلى مسألة القيم التي تُعدّ في المنظور الإسلامي مرتبطةً به، إذ يوجه السلوك وفق قواعد تجعل الإنسان يعيش وجوده الاجتماعي بأخلاق معروفة لها دلالاتها على مستوى الأفراد والمجتمعات. ومن المؤكد أن خلف هذه الحقيقة يكمن التعارض الذي يشعر به المسلمون في سلوكهم اليوم، بين تلك القواعد وما غدا، للأسف، شائعاً يفرض نفسه على الأجيال، من ممارسات توصف عن حق بأنها لاأخلاقية، أو أنها منافية للشرع وللتقاليد المؤسسة عليه.

والجدير بالذكر والتنبيه أن الإسلام يحتاج في النظر إليه، ليس باعتباره مجرد دين فقط، أي يتضمن تشريعات وأحكاماً وقيماً، ولكن باعتباره كذلك تاريخاً وحضارة وثقافة، مع ما يتطلب هذا الاعتبار من تجديد، بالاجتهاد في الشريعة وفي غيرها، وفي مختلف قضاياه ـ وفق ما سبق القول ـ لإمكان جعله قادراً على الاستجابة لمستلزمات العصر، أي لحاجات المسلمين في هذا العصر وعلاقاتهم فيما بينهم أو في تواصُلهم مع الآخرين.

أما عن التراث الذي هو مرمى آخر رئيس لحداثة الغرب، فإنا ندعو إلى الاعتناء به واعتماده، باعتباره ذاكرة الأمة ومرجعها وحافظ هويتها وإرثها، وجامع ما أنتجت بعبقريتها طوال الأزمنة والعصور، مبرزاً خلاصة حضارة هذه الأمة وثقافتها .ويُعدّ ثمرة نبوغ الأجيال الماضية، لا فرق فيه بين ما هو محفوظ في خزائن الكتب ومتاحف الفن والآثار، وما هو قائم أمامنا من مظاهر عمرانية، وكذا ما هو حي ماثل في حياتنا بالمعايشة والممارسة، من عادات وتقاليد وإبداعات شعبية، وما إليها مما يحتاج بدوره إلى المراجعة لتصفيته من الشوائب التي تراكمت عليه، بعيداً عن المباهاة به والتفاخر، ولكن للاستفادة منه في تجربتنا الحاضرة.

ومثل ذلك نقوله عن التاريخ وأهميته، إذ لم يكن من قبيل المصادفة ما عاشته الدولة أو الدول الإسلامية عبر مختلف الحقب، قبل أن يتعرض المسلمون للانهيار والاستعمار. ولم يكن من قبيل المصادفة كذلك، ما عرفه التاريخ في ظل هذه الدول من ازدهار حضاري وثقافي كان، باعتراف مؤرخي الغرب المنصفين، أساسَ النهضة التي عرفها الغرب .هذا مع العلم أن أنظمة تلك الدول لم تكن نموذجية، بل كانت في معظمها تعاني تناقضات ومشكلات سياسية واقتصادية واجتماعية، لعل في طليعتها عدم

القدرة على حفظ وحدة الأمة، وعلى مواصلة الاجتهاد الفقهي والتشجيع عليه، وبالتالي على تمكين العلماء من حرية كانت لا شك ستسعف في تحقيقه.

على أن اعتبار التاريخ يقتضي مراعاة تأثيره على تقدم المجتمعات أو تأخرها والعوامل الفاعلة في ذلك. وهو ما يستوجب أن تكون هذه المراعاة قائمة على منهج نقدي من شأنه أن يفضي إلى تحديث هذا التاريخ، أي جعله قابلاً ليكون أحد مقومات الحداثة الأصيلة المرجوة. وفي سياق هذا الاعتبار للتاريخ، ينبغي أن نستحضر وجودنا في المنطقة المتوسطية التي شهدت حضارات متقدمة وثقافات مزدهرة ـ أوروبية وعربية إسلامية ـ مما يفرض علينا جميعاً، أن نكون حريصين على تاريخنا المشترك وحذرين مما قد يشوهه أو يزيف تراثه.

إن الحداثة الأصيلة التي ندعو لها ـ وكما يوضحها الوصف بالأصالة ـ ترتكز وينبغي أن ترتكز على هذه الأصالة، أي على مقومات الهوية الإسلامية بجميع مكوناتها وروافدها العربية والأمازيغية وسائر التيارات التي صبت فيها وأغنتها، بدءاً من مرجعيتها الدينية والقيمية والتراثية، ليس فقط للحفاظ على تلك المقومات، ولكن كذلك ـ وكما قلنا وأعدنا القول

ـ لتصفيتها مما شابها وما تراكم عليها من فساد وتحريف مدى قرون عديدة، ثم لتطوير الصالح منها والنظر في إمكان ملاءمته مع ما يبدو لنا إيجابياً في الحداثة الغربية، ولا سيما من حيث مناهجها العقلية الجديدة، وما قد يكون مفيداً لنا في بحوثنا العلمية .وهذا دون إغفال ما عرفه الفكر العربي الإسلامي في مجالات العلم والعقل، يوم كان الغرب غارقاً طوال قرونه الوسطى في سبات الجهل والتخلف.

ومن غير أن نتوسّع في إبراز جوانب من هذه المجالات، فإنه يكفينا أن نشير إلى ما في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، من تنويه بالعلم والعقل والحث على استعمالهما .وهو ما برز به ـ على سبيل المثال ـ علماء الكلام منذ القرن الهجري الأول، أولئك الذين تناولوا بمعرفة وحرية، قضية ذات الله وصفاته وعلاقتها بالحوادث. ومن بين هؤلاء يذكر معبد بن خالد الجهني (تـ80 هـ)، وغيلان بن مسلم الدمشقي (تـ105 هـ)، والحسن البصري (تـ110 هـ) من القدريين الذين آمنوا بحرية الإنسان. وفي مقابلهم الجعد بن درهم (تـ117 هـ)، والجهم بن صفوان (ق127 هـ)، من الجبريين الذين كانوا يَحُدّون من هذه الحرية.

وامتداداً لهؤلاء المتكلمين، ظهر المعتزلة الذين تناولوا قضية الحرية والعدل، وما يتميز به الله تعالى من صفات جعلَتهم يقفون عند صفة الكلام، فاعتبروها محدثة وقالوا تبعاً لذلك، بأن القرآن مخلوق غير قديم. وكان بعضهم متأثراً بالفلسفة اليونانية، أمثال أبي الهُذيل العلاّف (تـ 226هـ)، وإبراهيم بن سيّار النظّام(تـ231 هـ). ثم ظهر في مقابلهم الأشاعرة الذين كان لهم رأي معتدل أعانهم على إعطاء صياغة عقلية للعقيدة بلورها أبو الحسن الأشعري (تـ324 هـ). وكان من أعلامهم أبو بكر الباقلاني (تـ403 هـ)، وعبد الملك الجويني الملقب بإمام الحرمين (تـ 438هـ).

وفي سياق هذه الحركة العلمية العقلية نفسها، سيتجلى اتجاه فلسفي برز فيه أبو يوسف بن إسحاق الكندي (تـ260 هـ)، وكانت له عناية فائقة بتلخيص بعض كتب الفلسفة اليونانية وترجمتها وشرحها في مزج لها بتعاليم الإسلام. كما برز فيه أبو نصر محمد الفارابي (تـ339 هـ)، وكانت له عناية بكتابات أرسطو وأفلاطون والأَفلُوطينية، مع الاهتمام بإشكالية الألوهية وعلاقة الحق سبحانه بالعالم، في توجيه لفلسفته نحو غاية معينة هي السعادة التي خصص لها كتاب «المدينة الفاضلة».

وسيتقوى هذا الاتجاه الفلسفي عند أعلام الأندلس والمغرب، وعلى رأسهم أبو الوليد محمد بن رشد الحفيد (تـ595 هـ) الذي كان مبرزاً في علوم كثيرة، وخاصة في الفلسفة التي عمل فيها على شرح مؤلفات أرسطو وإصلاح ترجمتها. وكان له الفضل الكبير في تقريبها لأوروبا عبر ما يعرف بـ«الرشدية». والجدير بالإشارة في هذا المجال العلمي المتحرر، أن بعض علمائه كانوا حكماء، إذ كانوا يدعون إلى عدم إشاعة بعض القضايا الدقيقة والعميقة التي قد تشوش على عامة المسلمين. ولو اتسع المجال لأضفنا إشارات إلى ما كان للعرب والمسلمين في المشرق والأندلس والمغرب من سبق علمي في الهندسة والرياضيات والجغرافيا والطب والاجتماع وفي الاكتشافات المتصلة بالعمران، وحتى في الموسيقى وما إليها من آداب وفنون، مما يدل على ما بلغته الحركة العلمية والعقلية بعبقريتهم وإبداعاتهم، وما كان له تأثير كبير على نهضة الغرب .وإنه ليكفي أن نذكر أسماء مثل الشـــريف الإدريســـي السبتي (تـ560 هـ)في الجغرافيا، وعبد الرحمن بن خلدون (تـ808 هـ) في علم الاجتماع، وقبلهما ابن سينا (تـ428 هـ) في الطب الذي كان ألف فيه ابن رشد المشار إليه كتاب «الكليات».

على أن الاهتمام بهذا الجانب التراثي لا يعني، ونحن نتطلع لحداثة أصيلة، أن نجعل هذه الحداثة تنحصر في ذاك الماضي وتنغلق على نفسها، بل نريدها أن تكون متفتحة على كل الحداثات المستنيرة عبر اللائق من أنساقها المعرفية، بما فيها الحداثة الغربية، وأن تكون حاملة لرؤية شمولية تراعي الإنسان من حيث هو وفي جميع أبعاده. وبذلك تكون مع أصالتها وانبعاثها في أحضان الفكر العربي الإسلامي، ملائمة لفكر آخر، إيماناً منها بتعدد مظاهر الفكر الإنساني وتنوعها، وقبولاً منها كذلك للاختلاف وضرورة الأخذ والعطاء. وهذا هو ما لم تراعه الحداثة الغربية التي نبعث من مجتمعات في مكان وزمان معينين، وكانت غير موافقة لمجتمعات أخرى، بل إنها حتى لمجتمعات نشأتها، لم تعد صالحة، وفتحت المجال لما بعدها كما أشير قبل.

ومع ذلك، أي مع كل التفاؤل الذي يخامرنا بظهور حداثة أصيلة، فإنه ينبغي التنبه إلى الصعوبات التي قد تواجه المفكرين الذين يتقاسمون هذا التفاؤل. من هذه الصعوبات ما يكمن في منظور بعضهم للتاريخ والتراث، ممن يرون أن اعتمادهما قد يتعارض ويتناقض مع أية حداثة .ومنهم من يرى إمكان اعتماد الدين في حدود، شريطة التعامل مع نصوصه المقدسة

بمناهج عقلية تجعل تلك النصوص بعد تجريدها من قدسيتها، قادرة في نظرهم على التلاؤم مع الحداثة الغربية أو غيرها، حتى يكون لها موقع في العالمية التي ينشدها الغرب من خلال حداثته.

والحق أن العالمية أو الإنسانية لا تعني فقط ما عند الآخر المتفوق الذي يريد أن يفرض نموذجه كاملاً، أو أن يتحكم فيما عند غيره بِتمحُّنٍ، حتى يوافق هذا النموذج، كما يكشفه الموقف من النصوص المقدسة ؛ ولكنها تقتضي أن تضم كذلك ما في الحداثات الأخرى، بهوياتها وما لها من خصوصيات قد يكون منها ما هو مشترك مع غيره وما هو مختلف عنه، إلا أنه في النهاية يغني هذه العالمية، ولا سيما في مجالات القيم والثقافة، بما فيها ما يتعلق بالمعتقدات. وهو ما لم يدركه الطرفان معاً، أي الطرف المتقدم والطرف التابع له، أو الذي يريد أن يتبع ولو على حساب بعض مقومات ذاته. وكلا الطرفين يظن أن العالمية ثابتة لا تتغير ولا تتطور ولا تتجدد، في حين أن كل شيء بما في ذلك ما يتصل بالدين، قابل للتحديث، طالما تمت المحافظة على ثوابته ومكوناته الأساس.

وبعد، فإن أهم ما يتطلبه نجاح الحداثة الأصيلة التي يَدعو إليها هذا البحث، هو أن يقتنع العرب والمسلمون – شعوباً وأنظمةً– بإمكان قيامها

والحاجة الملحة إليها، وأن تكون لهم الإرادة في ذلك. وهو ما يستلزم من المفكرين المقتنعين بهذه الحاجة، أن يتبنوها – كل من جانبه – بالدرس والتحليل والنقد، حتى تكتمل رؤيتها وتتبلور ثم تطبق بعد ذلك ؛ على ألا يكتفوا بمجرد الموافقة الشكلية عليها .هذا إن لم يتخذوا منها موقف الرفض، أو ينظروا إليها باستخفاف ويعتبروها من الحلم الذي لن يتحقق.

ونودّ أن نضيف أنه لن يتسنى للحداثة المرجوة أن تنتج وتثمر في المرحلة الراهنة وفيما نتوق إليه من مراحل، ما لم نلتزم برؤية مستقبلية تراعي جميع متطلبات تحقيق هذا الهدف، بدءاً من تكوين الأجيال الحالية والمقبلة لمسايرتها والاندماج فيها والمساهمة كذلك. وهو ما يستوجب إعادة النظر جملة وتفصيلاً في برامج التربية والتعليم بمقرراتها ومناهجها وطرق أدائها، حتى تنغرس قيم تربوية ومعرفية جديدة في النشء الصاعد، على يد معلمين وأساتذة من مختلف مستويات التدريس، على أن يكونوا كذلك مكونين ومؤهلين بهذا التكوين لمواكبة هذه الحداثة الأصيلة وإغنائها بالمزيد من الدراسات العلمية المقنعة، ولا سيما على صعيد الجامعة ومراكز البحث.

مهما يكن، فإننا جميعاً في حاجة ماسة إلى الاقتناع بضرورة تحديث كل شؤوننا الخاصة والعامة، انطلاقا من أن التحديث في حد ذاته ظاهرة

لا تتوقف في أي مجتمع ولا ينبغي أن تتوقف رغم العوائق التي غالباً ما تعمل على تحريف المسير أو تحول دون تصحيح الأوضاع الفكرية ومراجعة المظاهر الواقعية والموروثة.

وليس ذلك بالأمر الذي يسهل تجاوزه والتغلب عليه، إذ يتطلب – كما ذكرنا – إرادة قوية لقبول مبدأ التجديد والتغيير ومواكبة العصر، في غير تهيب من مراجعة الذات، وفي غير انبهار كذلك بمستجدات العصر إلى حد الاستسلام لها وقبولها على ما هي عليه ؛ ولكن بالإضافة إليها، مع امتلاك مفاتيح ابتكاراتها والقدرة على إيجاد مسالك بينها وبين الموروث الذي لا إمكان للانفصال عنه، وخاصة في مجال المعتقدات والقيم النابعة منها، وما هو منسجم مع الطبيعة التي خلق الله عليها البشر وسائر الكائنات.

وإننا في ذلك غير مخيرين ولا مسموح لنا بالتردد والتلكؤ أو التراجع، بل نحن مضطرون إذا أردنا التغلب على الأزمات التي تحاصرنا والتي يعانيها عالمنا العربي والإسلامي الذي أخذت تنهار أسسه وتتهدم أركانه.[2]

2. يرجع في القضايا المثارة في هذا العرض إلى بعض مؤلفات الكاتب (انظر عناوينها في الموقع الخاص به تحت اسمه بالعربية والفرنسية والإنجليزية).